

Al-Zaytouna Centre
for Studies & Consultations



مركز الزيتونة
للدراسات والاستشارات

One Day Seminar

حلقة نقاش

The Palestinian Issue القضية الفلسطينية

Strategic Evaluation 2012 - Strategic Assessment 2013

تقييم استراتيجي 2012 - تقدير استراتيجي 2013

مداخلة

قراءة في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة
في تشرين الثاني / نوفمبر 2012 وانعكاساتها

2013-2012

العميد د. أمين محمد حطيط



Crowne Plaza - Beirut - Lebanon
February 6th, 2013

فندق كراون بلازا - بيروت - لبنان
6 شباط / فبراير 2013

قراءة في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2012

وانعكاساتها 2012-2013

العميد الدكتور أمين محمد حطيط *

مقدمة

في سياق أعمالها الجهادية التأكيدية على استمرار نهج المقاومة وخيارها في غزة، قامت المقاومة الفلسطينية في غزة بعمليات عسكريتين متتاليتين في الفترة ما بين 11 و13/11/2012، ضد القوات الإسرائيلية، التي تتحرش بالقطاع قي معرض أعمالها العدوانية الاستفزازية، فردت "إسرائيل" بعمل انتقامي ترجمته قصفاً محدوداً لأهداف داخل القطاع، ثم أعلنت التزامها بالتهدئة أو الهدنة مع حركة حماس، موحية بانتهاء الرد.

لكنّ الحكومة الإسرائيلية، وكما ظهر لاحقاً، كانت تريد خديعة المقاومة ومفاجأتها كما فعلت في سنة 2008 فنفذت في 14/11/2012 عملية جوية، أدت إلى اغتيال أحد القادة العسكريين الأساسيين والميدانيين لحركة حماس في غزة، عملية كانت بمثابة الإعلان عن انطلاق مواجهات مفتوحة مع المقاومة الفلسطينية في غزة، التي ردت على العملية الهجومية المسماة إسرائيليّاً بـ"عامود السحاب"، بعملية دفاعية أسمتها "حجارة السجيل"¹، ودارت مواجهات استمرت ثمانية أيام حتى 21/11/2012، حيث توقفت إثر اتفاق يقضي بالعودة بالتهدئة.

في ظلّ هذا الواقع يطرح السؤال: هل حققت "إسرائيل" في هجومها ما أرادت؟ وكيف كان أداء الأطراف في المواجهة؟ وما هي التداعيات على مستقبل القضية الفلسطينية والمنطقة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذه الورقة.

* العميد الدكتور أمين محمد حطيط: أستاذ جامعي، وخبير عسكري، وباحث استراتيجي.

¹ كان واضحاً أن تسمية العملية من طرفي النزاع استندت إلى مركز ديني: فالإسرائيل استوحت الاسم من التوراة، وأشارت إلى العمود الذي أقامه الله لهداية بني "إسرائيل" وإنقاذهم، والمقاومة اختارت الاسم من القرآن وأشارت إلى التدخل الإلهي لرد هجوم أبرهة الإثيوبي عن الكعبة المشرفة حيث أرسل طيوراً أبابيل ترمي جيش أبرهة بـ"حجارة من سجيل".

1. الأهداف الإسرائيلية:

أ. في الأهداف المتعلقة بالمقاومة الفلسطينية:

سعت "إسرائيل" إلى وضع حدّ لتراكم القوة لدى المقاومة الفلسطينية في غزة، والتخلص مما تشكله هذه المقاومة من تهديد لأمنها واستقرارها كما تزعم، ورأت أن تحقيق هذا الهدف أمر ممكن عبر ما يلي²:

1. تصفية القادة الفلسطينيين المقاومين من مقاتلين وسياسيين لتأسيس المقاومة ودفعها إلى التوقف عن أعمالها.
2. تدمير ما أمكن من مخزون الصواريخ الذي استطاعت المقاومة إقامته خلال السنوات الأربع، التي أعقبت عملية الرصاص المصبوب.
3. تدمير الأنفاق عبر سيناء التي سمحت بتوريد السلاح بالرغم من الحصار المفروض على غزة منذ خمس سنوات.
4. تدجين المقاومة الفلسطينية، وجعلها تحاكي في غزة الوضع القائم في الضفة الغربية والذي يصدق عليه القول بالمقاومة المقيدة المشلولة، إن لم نقل المنعدمة.

ب. الأهداف المتعلقة بالداخل الإسرائيلي:

1. استعادة الهيبة العسكرية الإسرائيلية، وترميم القدرة الردعية، بعد التآكل الذي أصابها منذ سنة 2000 ثمّ الصدمة التي أحدثتها "الطائرة أيوب"، طائرة حزب الله من دون طيار، التي فضحت وهن المنظومة الإسرائيلية من حيث المراقبة والتحكم.
2. اختبار نجاعة المنظومات والأسلحة والخطط العسكرية التي اعتمدت من أجل تحقيق "مناعة الجبهة الداخلية" وتأمين حمايتها إثر انكشافها في حربي 2006 و2009.

² يقول عاموس يادلين، رئيس معهد دراسات الأمن القومي، في دراسة له نشرت حول مواجهات غزة في 2012/11/16: "يمكن القيام بعدد من الخطوات الأولية من أجل ردع حماس مثل: احتلال المناطق الحدودية وتدمير الأنفاق والمواقع الهجومية التابعة لحماس".

3. التأثير في وجهة الرأي العام الإسرائيلي قبيل الانتخابات النيابية المبكرة التي حدد 2013/1/22 موعداً لها، لتأتي لمصلحة نتنياهو.

ج. الأهداف الاستراتيجية العامة:

أرادت "إسرائيل"، وخلفها الغرب بقيادة أمريكية، الوقوف على طبيعة أنظمة الحكم الجديدة، التي قامت في معرض ما اسمي "الربيع العربي"، واتجاهاتها الحقيقية ومواقفها من "إسرائيل" والمشروع الغربي.

2. الخطة العسكرية الإسرائيلية بين المرسوم والتنفيذ:

من المألوف في العمل العسكري الإسرائيلي الهجومي أن تنفذ الحرب أو العملية العسكرية الواسعة على مرحلتين: الأولى تترجم بعملية جوية تدميرية ساحقة³، والثانية بعملية برية اجتياحية "تطهيرية" لتكرس الانتصار في تحقيق الإنجاز المأمول، أما في عملية "عامود السحاب" / "حجارة السجيل" يبدو أن المخطط العسكري الإسرائيلي وضع خطته، أخذاً بعين الاعتبار المتغيرات التي سجلت في العقد الأخير من المواجهة وبالنظر إلى الأهداف التي رمت إليها العملية بكل جوانبها.

إضافة إلى ما ترتب على قتل المدنيين الفلسطينيين أثناء عملية "الرصاص المصبوب" سنة 2008 من تداعيات، خاصة اللوم الذي وجهته لجنة جولدستون لـ"إسرائيل" جراء ذلك. لكل هذه الاعتبارات وضعت "إسرائيل" خطتها في مواجهة غزة مع التقيد المبدئي بمبدأ المرحلتين، لكن مع مرونة عملية قضت إلى تجزئة كل عملية إلى خطوات كالتالي:

أ . العملية الجوية النارية: وجعلتها على مرحلتين:

1. المرحلة الجوية الأولى: تتمثل في قصف مركز لأهداف عسكرية منتقاة ومحضرة سلفاً (بنك أهداف من 260 إلى 320 هدفاً)، يتوخى منها قتل العدد الأكبر من القيادات الفلسطينية الميدانية، وتدمير المخزون من الصواريخ ومستودعات الذخيرة،

³ أنهت "إسرائيل" حرب الأيام الستة في سنة 1967 خلال الساعات الست الأولى من الهجوم، وذلك عندما نفذت الضربة الجوية الصاعقة، التي دمرت عبرها الطيران الحربي المصري وهو على الأرض مما اضطر الجيش المصري للعمل مكشوفاً بعد أن امتلكت "إسرائيل" السيطرة الجوية الكاملة، ما أمن لها نصراً كبيراً.

ومراكز التجميع والتصنيع الحربي. مع محاولة تجنب المسّ بالمدنيين قدر الإمكان⁴، إلا عند الضرورة القصوى⁵. ورأت "إسرائيل" أن تنفيذ هذه المرحلة وفقاً لما هو مخطط لها، سيمكنها من إعلان انتصارها، خاصة إذا اضطرت لوقف النار بشكل مبكر، قبل استكمال ما تبقى من المهمة، ودون أن تترك أي دليل على أي إخفاق يكون قد حصل.

2. المرحلة النارية الثانية: وتتمثل بتدمير ما أمكن من البنى التحتية ومراكز الإنتاج وتنفيذ إجراءات عقابية وانتقامية بحق الفلسطينيين، بحيث يتوسع القصف ويلامس المدنيين لإنعاش الرعب والخوف من النار الإسرائيلية في نفوس الفلسطينيين، ليمنعهم من المقاومة، وليفتح الطريق السهل أمام العملية البرية. نفذت "إسرائيل" المرحلة الأولى كاملة، وادعت أنها في الـ 36 ساعة الأولى، حققت ما ابتغته من العملية برمتها، حيث اغتالت القائد الميداني لحركة حماس أحمد الجعبري⁶ مع آخرين من القيادات الميدانية في الساعات الأولى من العملية، كما ادعت أنها دمرت الجزء الأكبر أو معظم ما خزن من صواريخ، ثم إنها شرعت في تنفيذ المرحلة النارية الثانية بعد أن تحللت من القيود التي التزمتها حيال المدنيين، فأجازت لطيارها معالجة الأهداف المكلفين بقصفها، بصرف النظر عن أمن الفلسطينيين المدنيين وسلامتهم.

⁴ أعلن مسؤول التعليمات بوحدة طائرات الاستطلاع في الجيش الإسرائيلي، أن "الجيش كان حريصاً على تفادي استهداف المدنيين الفلسطينيين في عدوانه الأخير على قطاع غزة"، موقع النشرة اللبناني الإخباري، 2012/12/30.

⁵ يقول اليكس فيشمن، المحلل العسكري الإسرائيلي، في جريدة **يديعوت أحرונوت**، 2012/11/20: "يبدو أن صاروخي "فجر-5" اللذين وجهتهما حركة الجهاد الإسلامي إلى تل أبيب، تم إطلاقهما من داخل منطقة أهلة بالسكان في جنوب قطاع غزة، وهي منطقة لم تتعرض حتى الآن للغارات المكثفة التي تشنها "إسرائيل" منذ بدء عملية "عمود السحاب" العسكرية وذلك خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى سقوط ضحايا كثيرة في صفوف السكان المدنيين (حتى الآن، أي: 2012/12/17).

⁶ تم اغتيال نائب القائد العام لـ"كتائب القسام" أحمد الجعبري بتقنية TCT التي استخدمت في حرب تموز 2006، وفقاً لما صرح به مسؤول التعليمات بوحدة طائرات الاستطلاع في الجيش الإسرائيلي، وهي التقنية التي تعني معالجة الأهداف الآتية البالغة الأهمية والتي لا يمكن تضييعها لأنها سريعة الفقدان، لذلك تم التأكد عبر طائرة الاستطلاع أن السيارة نُقل الجعبري، حينها تم استدعاء طائرة أخرى للقضاء عليه"، على حد قول هذا الضابط، وفقاً لما نقل عنه عبر وكالات الأنباء ونشره موقع النشرة الإخباري اللبناني، 2012/12/30.

ب . العملية البرية:

خطت "إسرائيل" لتنفيذ العملية البرية على مراحل ثلاث متدرجة، بحيث لا تنتقل إلى تنفيذ المرحلة اللاحقة إلا بعد أن تتأكد من ملائمة البيئة الدولية ومن قدرة قواتها ومجتمعها على معالجة ردة فعل المقاومة واستيعاب أعمالها ومفاعيلها وخطت "إسرائيل" كما يبدو للعملية البرية لتنفيذ على خطوات ثلاث⁷، كما يلي:

1. الخطوة البرية الأولى: تتمثل بتقدم القوات البرية إلى حدود القطاع، ثم تضيق الحصار عليه، عبر احتلال شريط متماسك ومتواصل حول القطاع وفيه وعمق يتراوح من ثلاثة إلى خمسة كم، احتلال يكون من شأنه تعطيل استعمال الجزء الأكبر من مخزون الصواريخ ذات المدى دون الستة كم، على أن يترافق ذلك مع تدمير الأنفاق التي تصل القطاع بسيما لمنع الإمداد اللوجستي والعملائي من الخارج.

2. الخطوة البرية الثانية، وهي خطوة لم تنفذ كما ذكرنا لارتباطها بالخطوة الأولى أصلاً، وكانت تتضمن، كما يبدو احتلال ممرات في القطاع بعرض من اثنين إلى ثلاثة كم، من أجل تقطيعه إلى مربعات، ثم حصار تلك المربعات دون الدخول في مواجهة ميدانية مباشرة مع المقاتلين في الأماكن السكنية.

3. الخطوة البرية الثالثة: خطتها "إسرائيل" لتكون نتوجاً لعملية "عامود السحاب"، وتتمثل باحتلال كامل القطاع، والقيام بعملية اجتثاث للمقاومة عبر ملاحقتها بشكل يذكر بسنة 1982 في لبنان. وكانت "إسرائيل" قد بدأت بالتحضير لها عبر الإعلان عن استدعاء 75 ألفاً من الاحتياط، وتحضير البيئة الدولية لتقبل هذا القرار ونتائج.

⁷ قال عاموس يادلين، رئيس معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، في دراسة له نشرت في 2012/11/17 من هنا يجب الامتناع من العودة إلى الاحتلال الكامل للقطاع، ذلك بأن سيطرة إسرائيل من جديد على مليون ونصف المليون فلسطيني هو خطأ استراتيجي خطير، لكن في حال لم توافق حماس على وقف القتال يجب أن يكون الجيش الإسرائيلي مستعداً للقيام بعملية برية واسعة النطاق في غزة.

ويمكن القيام بعدد من الخطوات الأولية من أجل ردع حماس مثل: احتلال المناطق الحدودية وتدمير الأنفاق والمواقع الهجومية التابعة لـ"حماس"، وتقسيم القطاع، وقطع الطريق أمام العناصر الإرهابية. على إسرائيل أن تظهر إصرارها الكامل على توسيع نطاق الهجوم على حماس من أجل زيادة الضغط على الحركة واسترجاع القدرة على الردع في مواجهتها. ونظراً إلى أن سلوك حماس في غزة يشبه سلوك الدولة، فإنه يتعين على إسرائيل أن تستغل ذلك لمطالبة الحركة بتحمل مسؤولياتها".

3. الأداء الفلسطيني خلال عملية "حجارة السجيل" في الطبيعة والمفاعيل:

أ. الاستعداد الدفاعية للمقاومة في غزة قبل العدوان:

لقد بنت المقاومة الفلسطينية منظومتها الدفاعية في غزة على أسس سبق اختبارها، مستفيدة من مجريات حرب 2009/2008 ونتائجها، فضلاً عن الدروس المستفادة من حرب سنة 2006 في لبنان، حيث نسجل قيام المقاومة في غزة بما يلي:

1. تحصين الأرض وإعدادها للدفاع عبر قتال غير تقليدي تمارسه خلايا المقاومة (حرب العصابات / الغرية حسب المصطلح الغربي)، وهنا ظهر جلياً أن المقاومة الفلسطينية لجأت إلى حفر الأنفاق في مختلف مناطق القطاع لأكثر من غاية، نذكر منها: الاتصال بالخارج لتخطي عقبات الحصار، وتأمين الانتقال الآمن داخل القطاع بين مراكز القتال المتقاربة، ثم إنها بنت مراكزها الدفاعية المنتشرة على كامل القطاع وفقاً لاستراتيجية "الطبقات المتتالية المترابطة" التي أسمتها "إسرائيل" "استراتيجية طبقات البصل أو قشرة البصل". وفيها تواجه طبقة جديدة كلما فرغت من طبقة سبقت، ما يعني أن خرق دفاعات الخط الأول لا يعني التمكن من الاندفاع الآمن السريع والسهل إلى عمق القطاع.... أضف إلى ذلك ما قامت به المقاومة من اعتماد سياسة التبدد والانتشار، فيما خص تركيز مستودعات الصواريخ ووجائر الذخيرة ومخازنها، الأمر الذي حرم "إسرائيل" من فرصة صيد الأهداف الكبرى الثمينة وجعلها في كثير من الأحيان تنفق من الذخيرة وتتكدب كلفة الانقضاض على هدف معين ما يعادل قيمة الهدف ذاته إن لم يكن أكثر.

2. تطوير المخزون من الصواريخ وتحسين نوعيتها وفعاليتها، حيث اعتمدت المقاومة لتعزيز قدراتها الصاروخية على مصدرين: محلي، وخارجي.

• ومن المصدر الأول تمكنت من تصنيع صواريخ يصل مداها إلى 75 كم كما هو الحال مع الصاروخ "م 75" أو "M75" (وهي تسمية تجمع مدى الصاروخ إلى اسم المهندس الفلسطيني الذي عمل في التصنيع الصاروخي، واسمه إبراهيم المقادمة، ومدى الصاروخ وهو 75 كم). كما أنها تمكنت من جمع وتركيب جزئيات الصواريخ المهرة عبر الأنفاق.

• ومن المصدر الثاني استطاعت أن تمتلك عبر سورية الصواريخ المتعددة الأنواع، والتي منها المضاد للدروع ومنها متوسط المدى وأهمها "فجر 5" التي زودتها بها إيران ويتعدى مداها الـ 75 كم.

3. تفعيل جهاز القيادة والسيطرة إلى حدّ مقبول مع التخفيف إلى حدّ بعيد من مخاطر العملاء الذين كانوا يقدمون لـ"إسرائيل" الخدمات.

ب. إدارة المعركة من قبل المقاومة خلال المواجهة:

1. القرار بالمواجهة: كان الموقف الفلسطيني المعلن مباشرة بعد اغتيال القائد احمد الجعبري هو الذهاب فوراً للمواجهة الواسعة والرد على "إسرائيل" بنار حامية لأنها بعملية الاغتيال "فتحت باب جهنم عليها"... وانخرطت كل فصائل المقاومة في العمل الميداني ولم تترك حركة حماس وحدها في المواجهة بالرغم من أن الذي اغتيل هو قائد من حماس. لا بل يمكن التوقف عند ما ذكر بان حركة الجهاد الإسلامي سارعت لإمطار المستعمرات الصهيونية بالصواريخ وبأنها أول من استهدفت تل أبيب بصاروخي "فجر 5"⁸. وقد كان لهذا الانخراط الجماعي أثر معنوي مهم في اتجاهين: الأول باتجاه الداخل الفلسطيني وما فيه من مفاعيل شدّ العصب والتماسك، والثاني باتجاه الخارج وهو إظهار وحدة كلمة المقاومة ووحدة قرارها وخياراتها في العمل الميداني المسلح ضدّ "إسرائيل".

2. الرد الناري المتصاعد: كانت "إسرائيل" تعلم أن لدى المقاومة الفلسطينية كمية وافرة من الصواريخ، وهذا لم يكن بالأمر المفاجئ لها. أما المفاجأة الحقيقية فقد ظهرت في أمور ثلاثة:

الأول: يتعلق بقرار اختيار الأهداف في تل أبيب والقدس، وقد شكل قصف تل أبيب واستهدافها بصاروخي "فجر 5" صدمة كبرى لـ"إسرائيل"، وعلى أكثر من صعيد، وجعل مسار المعركة برمتها يتحول في اتجاه آخر، لأن الجرأة والشجاعة التي امتلكتها المقاومة في اختيار أهدافها هذه أدت وبشكل فوري ومباشر إلى مزيد من تآكل الهيبة والقدرة الردعية الإسرائيلية.

⁸ يقول المحلل العسكري الإسرائيلي اليكس فيشمن في مقالة نشرتها جريدة **يديعوت أحرونوت** الإسرائيلية في 2012/11/20 "يبدو أن صاروخي "فجر-5" اللذين وجهتهما حركة الجهاد الإسلامي إلى تل أبيب، تم إطلاقهما من داخل منطقة أهلة بالسكان في جنوب قطاع غزة".

الثاني: المحافظة على نمط إطلاق الصواريخ طيلة فترة المواجهة، حيث اعتمدت المقاومة الفلسطينية وبالرغم من تعدد فصائلها نمطاً مستقراً، وأطلقت صواريخها بمعدل يومي وسطي وصل إلى 180 صاروخاً متفاوتة المدى⁹. وفي حصيلة عامة بلغت 1,522 (زعمت "إسرائيل" أن مجموع الصواريخ التي أطلقتها المقاومة خلال 8 أيام بلغ 1,466).

الثالث: الانتشار والجهوز الميداني للمعركة البرية، لقد استكملت المقاومة الفلسطينية بعد كانون الثاني/يناير 2009 إعداد الأرض وتحسينها بما يمكنها من خوض مواجهات برية، وصولاً إلى معارك الالتحام بحيث تتمكن من إيقاع الخسائر البشرية المؤثرة في صفوف العدو، معتمدة في ذلك استراتيجية "الثن المرتفع لأي تقدم إسرائيلي براً و"تضخيم كلفة"...

3. التكامل الواقعي بين فصائل المقاومة الفلسطينية في الأداء العملائي الميداني... حيث خاضت المقاومة وبالتعددية التنظيمية المواجهات في غزة بالرغم من أنها لم تنشئ غرفة عمليات مشتركة لتدير عبرها الأعمال القتالية... (يجب أن نفكر بمدى نجاح هذا الأداء فيما لو اختبر في العملية البرية).

4. نتائج المواجهة بين "إسرائيل" والمقاومة الفلسطينية في غزة 2012:

استمرت العمليات العسكرية التي تسببت بخسائر مهمة لحقت بطرفي المواجهة¹⁰. لمدة ثمانية أيام انتهت في 2012/11/21 الساعة 21:00، باتفاق وقع بين "إسرائيل"

⁹ 120 صاروخ من المديات القصيرة دون الـ 20 كم و40 صاروخاً من مدى 30 كم وما فوق و10 صواريخ من مدى يفوق الـ 75 كم.

¹⁰ حيث إن الخسائر الفلسطينية بلغت الـ 162 شهيداً و520 جريحاً وأن "قيمة الأضرار الناجمة عن العدوان الإسرائيلي على القطاعات المختلفة بلغت 1.245 مليار دولار"، وأن "قيمة الأضرار المباشرة بلغت الـ 545 مليون دولار، والأضرار غير المباشرة 700 مليون دولار. "حيث تضرر "مائتي مبنى سكني تعرض للهدم الكلي وثمانية آلاف للهدم الجزئي".

وذلك وفقاً لما صرح به طاهر النونو المتحدث باسم الحكومة الفلسطينية المقالة التابعة لحماس في غزة، ونقلته وكالة الصحافة الفرنسية في 2012/11/25 خسائر وقعت جميعها أثناء عمليات القصف الإسرائيلي الجوي والمدفعي للأماكن التي ادعت "إسرائيل" أنها مواقع عسكرية، ولكن معظمها طال المدنيين وفقاً لما أظهرته الإحصاءات والتدقيقات من الجهات المحايدة.

أما "إسرائيل" فقد تكبدت خسائر مادية وبشرية تعدد في المنظور الإسرائيلي مهمة وبلغت الأثر، وهي التي حملت "إسرائيل" على السعي إلى وقف إطلاق النار، بعد أن أوقعت المقاومة أكثر من 12 قتيلاً وسبعين جريحاً في صفوف الصهيانية (اعترفت "إسرائيل" بسنة قتلى و43 جريحاً) وبعد أن باتت =

والمقاومة الفلسطينية برعاية مصرية. اتفاق رأيت المقاومة فيه انتصاراً لأنه حقق لها أمرين أساسيين يتعلقان بأمن القطاع وحاجات المدنيين، فكان وعد والتزام بتخفيف الأعباء الناشئة عن الحصار، كما والامتناع عن التعرض لأمن قيادتها، وفي المقابل رأيت "إسرائيل" أنها حققت هدفها بوقف إطلاق الصواريخ انطلاقاً من القطاع.

وقد يبدو الاتفاق للوهلة الأولى بأنه اتفاق متوازن، بحيث أنه أعطى كلاً من فريقي النزاع ما يريد¹¹ في الحد الأدنى، لكن إذا أعمنا النظر والتعمق في الظروف والكيفية التي حصل فيها الاتفاق، فإننا نستطيع أن نقول بأن هزيمة عسكرية لحقت لإسرائيل¹² للأسباب التالية:

- لم تستطع "إسرائيل" إلزام المقاومة بشروطها الأولية، كما أنها لم تتمكن أن تحقق أهدافها الحقيقية في الميدان.
- اضطرت "إسرائيل" للاستجابة لشرطي المقاومة بالنسبة لأمن القيادات الفلسطينية، وفك الحصار.
- إن امتناع المقاومة عن إطلاق الصواريخ لا يعدّ بحد ذاته خسارة لها، لأن الصواريخ لم تكن ولم تعتمد في الأصل لأهداف هجومية ابتداءً، وقد كان اللجوء إليها في الأساس من أجل ردع "إسرائيل" عن عدوانها، وبالتالي لن يكون هناك حاجة للصواريخ إذا لم تبادر "إسرائيل" وتقوم بقصف القطاع أو استهدافه بأي

=صواريخ المقاومة تهدد العمق الاستراتيجي في القدس وتل أبيب وتجبر أكثر من مليون إسرائيلي على اتخاذ تدابير الوقاية والحذر وتهدد البلدات في جنوب "إسرائيل" مثل (عسقلان وأسدود)، حيث تضم تلك المناطق ألف مصنع، فضلاً عن عدد من المشاريع التجارية الصغيرة، وكل هذه المنشآت بقيت مغلقة على مدى أيام المواجهة وفقاً لجريدة هآرتس الإسرائيلية.

¹¹ نشرت جريدة معاريف الإسرائيلية، ونقل عنها مركز الزيتونة للدراسات أنه "رغم أنه بعد حملة "عمود السحاب" سارع الفلسطينيون إلى الإعلان عن نصر كبير، لم تتجرأ واحدة من منظمات الإرهاب في غزة على إطلاق حتى ولا صاروخ واحد نحو إسرائيل على مدى شهر كامل. ولغرض المقارنة، ففي الشهر الذي تلى حملة رصاص مسكوب أطلق على إسرائيل ما لا يقل عن 49 صاروخاً"، انظر: معاريف: إحصائية لعدد الصواريخ التي أطلقت من قطاع غزة بين 2002 و 2012، موقع مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2013/1/21.

¹² أظهر استطلاع الرأي الذي أجراه كل من معهد هاري اس ترومان لتقدم السلام بالجامعة العبرية في القدس والمركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية في رام الله، بأن 26% فقط من الإسرائيليين يعتقدون أن الدولة اليهودية قد انتصرت في الصراع. وفي المقابل يعتقدون 81% من الفلسطينيين بأن حماس كانت هي المنتصرة.

طريق من الطرق، أما إذا فعلت وتحللت من بنود الاتفاق فيكون للمقاومة أن ترد متحللة من الاتفاق هي أيضاً.

• لم يتعرض الاتفاق إلى العمل المقاوم بذاته أو ارتباط المقاومة بدول أو تنظيمات أخرى ولم يمسّ موقعها في محور المقاومة.

5. الدروس والتداعيات الاستراتيجية لعملية "عامود السحاب" / "حجارة السجيل":

أ. على الصعيد الفلسطيني:

1. أظهرت المقاومة الفلسطينية صلابة معنوية ومناعة ملفتة أمام الضغوط والحرب النفسية التي شنّها العدو، وأسهم فيها بعض العرب المرتمين في أحضانه.

2. نجحت المقاومة في اختبار نشر القوى في أرجاء القطاع مع تجنب تشكيل الأهداف الثمينة الكبرى الملائمة للقصف الجوي، ما أدى إلى الحد من تأثير الطيران بعد اليوم الثالث للعملية، وبعد أن استنفد "بنك الأهداف" الذي تبين أنه غير دسم. واصطدمت "إسرائيل" في الأيام الأخيرة بواقع "إرسال القبضة في الفراغ" بعد انتفاء الأهداف الملائمة.

3. تمكنت المقاومة وبقدرة محدودة من أن تفضح وهن القبة الفولاذية ومعها منظومات الدفاع ضد الصواريخ الأخرى من السهم (أرو) إلى مقلاع داوود، وكشفت حاجة "إسرائيل" إلى منظومة إضافية تغطي المسافة بين مدى الـ 100 كم ومدى الـ 250، الأمر الذي سيكبد "إسرائيل" في حال تحقيقه نفقات إضافية في المجال العسكري. هذا فضلاً عن أن فعالية القبة الفولاذية، حتى وباعتراف "إسرائيل"، لم تصل إلى المستوى المتوخى منه، ولم تصل إلى درجة "منع تشكل الخوف لدى الجمهور الإسرائيلي وتأمين المناعة الاجتماعية" المعول عليها من أجل السماح لـ "إسرائيل" في الدخول في حرب تكون فيها جبهتها الداخلية آمنة. وهذا يعني تكبير الأيدي الإسرائيلية بشكل محكم في مسألة اتخاذ القرار بحرب ضدّ أي من دول ومنظمات محور المقاومة، وهذا الأمر يعدّ الخسارة الاستراتيجية الأكبر التي نزلت بـ "إسرائيل" من خلال عملية "عامود السحاب".

4. تمكنت المقاومة من انتزاع ورقة فتح المعابر، وبالرغم من أن الأمر لم يكن واضحاً ولم توضع آلية مطمئنة له، فإن تداوله بالشكل الذي حصل يعدّ إنجازاً لا يمكن إغفاله.

5. كان واضحاً أن "جيش العملاء" الذي فاخرت "إسرائيل" بوجوده خلال حرب 2008/2009 والذي وفر عليها الكثير من الخسائر ومكنها من تحقيق إنجازات ميدانية مهمة خلال تلك المواجهات، أن هذا الجيش تراجع دوره وضمّر حجمه.

ب. التداعيات والآثار على الصعيد الإسرائيلي:

1. فشلت "إسرائيل" في تحقيق هدفها العسكري الرئيسي لجهة تحطيم المقاومة أو شلها، لكنها كسبت هدنة غير محددة الزمن وبضمانة مصرية والتزام من حركة حماس التي باتت تعدّ أن الخروج على الهدنة يعدّ "فساداً في الأرض" يستوجب المواجهة لمنعه وفقاً لما جاء في قرار لوزير الأوقاف الفلسطيني في حكومة إسماعيل هنية المقالة¹³.

2. أحرزت "إسرائيل" ضماناً مصرية للاستمرار في مراقبة تسليح المقاومة وإغلاق الأنفاق لمنع التهريب، ورأى يعالون أن الجانب المصري يبدو منذ انتهاء عملية "عامود السحاب" في غزة متفهماً للمسؤولية التي يتحملها على هذا الصعيد¹⁴.

3. اطمأنت "إسرائيل" إلى مستقبل استمرار العلاقة مع مصر بعد وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم.

4. ازداد تزعر ثقة الإسرائيليين بقيادتهم العسكرية، بعد أن افتضح وهن الإجراءات والوعود التي أطلقت في مضمار الدفاع عن الجبهة الداخلية وحمائتها، وقد انعكس ذلك تراجعاً في نظرة الإسرائيليين إلى مستقبل "إسرائيل"، ووهن إرادة التشبث بالبقاء فيها، وأظهرت استطلاعات رأي متتالية أن 39% منهم لا يتقنون بمستقبل "إسرائيل"، وأن 43% منهم على استعداد لاستعمال جواز السفر الثاني للهجرة والعودة إلى الأوطان الأصلية التي جاؤوا منها.

¹³ نقل موقف النشرة الإخباري اللبناني في 2012/12/25 أن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في الحكومة المقالة في غزة أصدرت في 2012/11/25 فتوى تحرم خرق الهدنة مع إسرائيل بأي شكل من الأشكال طالما احترمتها الأخيرة، مشددة على أن "خرق التهدة مع إسرائيل حرام وفساد في الأرض" .. وأشار سلمان نصر الداية في فتواه الصادرة عن الوزارة إلى أن "احترام هذه الهدنة واجبٌ على كل واحد منا".

¹⁴ نقله موقع النشرة الإخباري اللبناني وموقع بوابه الأهرام المصري في 2012/12/25.

5. تهيب "إسرائيل" لتنفيذ العملية البرية بالرغم من كل ما قيل حولها أو روج من استعداد لتنفيذها، وتبين أن لهذا الإحجام أسباب ثلاثة عملت متكاملة وصولاً لاتخاذ القرار بهذا الإحجام وهي:

- عدم التحضير العسكري الكافي للتغلب على تحصينات المقاومة.
 - ظهور إرادة فلسطينية متشددة ومستعدة لمواجهة ميدانية طويلة النفس.
 - تدخل العامل الخارجي الإقليمي والدولي في رعاية مفاوضات وقف إطلاق النار.
6. تضاربت المواقف الإسرائيلية الداخلية حول تقييم نتائج المواجهات، الأمر الذي يعدّ نادر الحصول في "إسرائيل"، ولكن بدا أن هناك شبه توافق على تقصير في المستوى العسكري بقيادة وزير الدفاع إيهود بارك لجهة العجز عن إحكام الحصار على غزة، ما تسبب بتراكم القدرات الصاروخية لدى المقاومة، وعجز الاستخبارات في تحديد مواقع كامل مستودعات ومخازن الصواريخ، وعجز في تحديد استعدادات الفلسطينيين ونواياهم في اختيار الأهداف (خاصة تل أبيب القدس) وأخيراً وهن القبة الفولاذية التي تكبدت "إسرائيل" الأموال الباهظة من أجلها. كل ذلك دفع يهودا بارك للإعلان عن اعتزاله الحياة السياسية لقطع الطريق على تشكيل لجنة تحقيق للنظر في الأمر كما هي عادة "إسرائيل" عند التقصير والإخفاق، وهذا ما حصل، ما فسر بأنه اعتراف عملي بإخفاق الجيش الإسرائيلي عن تحقيق أهدافه في الميدان.

ج. التداعيات والآثار على الصعيد الاستراتيجي العام:

1. أدت مواجهات غزة والطريقة التي تم وقف إطلاق النار بموجبها إلى فقدان "إسرائيل" ما كانت تجنيه من التهديد بالحرب أو الذهاب إليها. فقد كانت ورقة الحرب ورقة قوة بيد "إسرائيل"، سواء لدى التهديد بها من اجل الابتزاز والضغط أو لدى الذهاب الفعلي للحرب لفرض ما تريد خاصة وأن الحرب باتت باهظة الثمن وأن العدو قادر على المواجهة¹⁵.

¹⁵ في إحصائية عممت في "إسرائيل" حول كلفة الحرب وما يتكبده الاقتصاد الإسرائيلي نتيجة المواجهة التي حصلت ذكرت الأرقام التالية: تتكبد إسرائيل 400 مليون دولار يومياً من مواجهات غزة، حيث تبلغ تكلفة ساعة واحدة من طيران الطائرات المقاتلة أو المروحيات حوالي 5,000 دولار، أما عن تكلفة ساعة طيران تقوم بها طائرة دون طيار فتقدر بنحو 1,500 دولار، ومع نظام القبة الحديدية التي تستخدمه إسرائيل لاعتراض صواريخ فصائل المقاومة الفلسطينية، التي يبلغ تكلفتها=

2. أدت طريقة التفاوض والالتزامات والضمانات التي أحاطت باتفاق وقف إطلاق النار إلى اضطراب الموقع الفلسطيني في محور المقاومة (دون حصول قطيعة معه)، لكن توقف المواجهة على مشهد يؤكد أن البندقية المقاومة تستمر مرتفعة ومنتصرة وأنها هي التي تكسر إرادات العدو وتصنع الانتصارات للممسكين بها، أمر من شأنه أن يحفظ استمرار العلاقة البنوية والوظيفية للعامل الفلسطيني المقاوم، مع من تبقى من مكونات محور المقاومة.

ومع هذه المتناقضات نستطيع أن نقول إن "إسرائيل" فشلت في انتزاع القضية الفلسطينية من محور المقاومة، لكن العامل الفلسطيني داخل هذا لمحور اهتز واضطرب بانتظار متغيرات مستقبلية قد تدفع إلى ترميم الوضع.

3. نجاح مصر في الاختبار بعد تولي الإخوان المسلمين الحكم فيها.

الخاتمة

لقد شكلت مواجهات غزة إخفاقاً عسكرياً إسرائيلياً، ما يعني أنه كان نجاحاً ونصراً للمقاومة في الميدان ومع ذلك فإننا نلفت إلى المسائل التالية:

- أهمية البناء على الإنجازات الميدانية والتحرك سياسياً باتجاه من طبيعة هذا الإنجاز.
- أهمية احترام التعددية والاختلاف بين فصائل المقاومة والإحجام عن أي اتجاه إقصائي أو استثنائي أو الغائي، فالقضية بحاجة إلى الجميع، ومع حفظ التعددية يكون مهما البحث في صيغة تنسيق ميداني وفقاً لما يلاءم الفرقاء، كلجان الارتباط والتنسيق أو غرف العمليات المشتركة.
- أهمية اعتماد مبادئ أساسية لاستراتيجية فلسطينية عليا، من أجل تأكيد الثوابت ووضع الخطوط الحمر حول المحظورات، خاصة في مسألة القدس وحق العودة والنزاع الداخلي والحقّ بفلسطين التاريخية.

=بضعة مئات من الدولارات، فإنها مع كل طلقة اعتراضية تتطلب حوالي 40 ألف دولار، في حين يبلغ متوسط كلفة جندي الاحتياط نحو 450 شيكل (113 دولاراً) يومياً، فضلاً عن كلفة غير محسوبة تتعلق بترك عناصر الاحتياط في الجيش الإسرائيلي لوظائفهم وهو ما يعني خسارة في الإنتاج".